الفصل الثانى

دستور الفكر بعد دستور السياسة

١ ـ « رالف والدو امرسن » واستقلال الفكر :

أعلنت الولايات المتحدة وثيقة استقلالها عام ١٧٧٦ ، فضمنت « اعلان الاستقلال » مبادئها التى قررت بها حقوق الانسان الطبيعية التى لا فضل فيها لأحد على أحد ، لكنها اذ وضعت — فى تلك الوثيقة — للسياسة دستورها ، اعتمدت فى مصادرها على الفكر الأوروبى بصفة عامة ، وعلى الفيلسوف الانجليزى « چون لوك » بصفة خاصة ، فكانت فى ذلك بمثابة من استقل بجسده ولم يستقل بروحه ، وأين يكون استقلال الروح اذا كانت أوروبا لا تزال تضع لها المبادىء وتخطط لها مناهج التفكير ؟

ولبث الأمر كذلك حتى جاء « رالف والدو امرسن » (١)

(١) من أعجب المصادفات التاريخية أن مدينة « كونكورد » التى اختارها امرسن لإقامته والتى كانت مهبط وحيه وتفكيره ، كانت هى نفسها المدينة التى انطلقت بالقرب منها أول رصاصة فى حرب الإستقلال قبل ذلك ببضعه عشر عاماً ، فكأنما أراد الله لمكان واحد أن يكون مصدر الاستقلال السياسى ومصدر الإستقلال الفكرى ؛ وكانت تلك الرصاصة الأولى فى حرب الاستقلال هى التى عناها امرسن فى إحدى قصائده حين قال عنها إنها الرصاصة التى سمع العالم كله صوتها ، قاصداً بذلك إلى أنها الرصاصة التى بدأت بها دعوة إلى الحرية ما لبثت أن عمت أرجاء العالم.

١٨٠٣ — ١٨٨٢ . فكان — كما يصفه «بروكس أتكنسن»[١] — « أول فيلسوف أمريكى الروح » ، ألقى خطابا عام ١٨٣٧ أمام الشباب المتخرج فى جامعة هارڤارد ، بعنوان « العالم الأمريكى »[٢] ، فعد هذا الخطاب فيما بعد « اعلانا للاستقلال العقلى » فى الولايات المتحدة ، جاء مكملا « لاعلان الاستقلال » السياسى الذى سبقه بستين عاما ، فى هذا الخطاب التاريخى الخالد فى تاريخ الثقافة الأمريكية ، يقول « امرسن » : « ان يوم اعتمادنا على غيرنا ، وتتلمذنا الطويل على علم بلاد أخرى ، يقترب من نهايته ، ان الملايين من حولنا ، التى تندفع نحو الحياة ، لا تستطيع أن تعيش دائما على البقايا الذابلة من المحصول الأجنبى »[٣] « انه لابد لكل عصر أن يكتب كتبه »[٤] « ينشأ الشباب الذليل فى المكتبات ، وهم يعتقدون أن من واجبهم أن يقبلوا الآراء التى أدلى بها « شيشرون » و « لوك » و « بيكن » ، ناسين أن « شيشرون » و « لوك » و « بيكن » كانوا شبابا فى المكتبات (مثلهم) عندما ألفوا هذه الكتب ، ومن ثم فبدلا

(١) راجع المقدمة التى كتبها بروكس أتكنسن لمجموعة مقالات امرسن الترجمة العربية بعنوان « مختارات من امرسن » للأستاذ محمود محمود .

(٢) The American Scholar

(٣) مختارات من امرسن — الترجمة العربية — مقالة « العالم الأمريكى » ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق مقالة « العالم الأمريكى » ص ٣١ .

من « الانسان المفكر » يكون لدينا قراء الكتب ، فتنشأ طبقة المتعلمين من الكتب ، الذين يقيمون للكتب وزنا لأنها كتب ، لا لأنها ترتبط بالطبيعة وتكوين الانسان .. ومن ثم يظهر أولئك الذين يردون كل مقروء الى أصله ، ومصححو الكتب ، والمولعون باقتنائها على اختلاف درجاتهم ، الكتب خير الأشياء اذا أحسن استعمالها ، أما اذا أسيء فهى من شر الأمور ، فما هو الاستعمال الصحيح لها ؟ ما هو الغرض الوحيد الذى تهدف اليه كل الوسائل ؟ ليس للكتب غرض سوى الايحاء ، وانه لخير لى ألا أرى كتابا من أن يضللنى الكتاب بجاذبيته عن مجالى ضلالا مبينا ، أو أن أصبح تابعا بدلا من أن أكون صاحب رأى مستقل .. انهم يتطلعون الى الوراء لا الى الأمام ، ولكن العبقرية تنظر الى الأمـام ، فالانسان عيناه فى مقدمة رأسه لا فى مؤخرته » [1] « ان أكبر فضل نعزوه الى «موسى » و « أفلاطون » و « ملتن » هو أنهم أهملوا الكتب والتقاليد كل الاهمال ، ونطقوا بما دار فى خلدهم لا بما دار فى خلد الناس ، كل وفق ما أملاه عليه عقله » [2] « لكننا اليـوم رعاع ، لا يقيم الانسان لانسانيته وزنا ، ولم يتعلم أن يلزم داره ليتصل بمحيطه الداخلى ، بل يرحل الى الخارج ، يطلب كأسا من الماء من

(١) المرجع السابق مقالة « العالم الأمريكى » ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢) المرجع نفسه : مقالة « الإعتماد على النفس » ص ١٢٨ .

أوعية الآخرين ، يجب أن نسير — فى الفكر — وحدنا » [1]
« اننا نقلد .. نبنى بيوتنا بذوق أجنبى ، ونزين رفوفنا بأدوات الزينة الغريبة عنا ، وآراؤنا وأذواقنا وكفاياتنا تخضع وتتبع الماضى والبعيد.. وما حاجتنا الى تقليد النماذج الدورية والقوطية ؟ ان الجمال وراحة الفكر وعظمته وغرابة التعبير قريبة منها قربها من أى انسان آخر » [2] .

هكذا طفق « امرسن » يدعو الى استقلال الفكر فى قومه ، لا ، بل هكذا طفق يدعو كل انسان فرد الى الاستقلال بفكره والاعتماد على نفسه ، والمرء اذا ما أنصت الى صوت ضميره وأحسن الانصات ، جاءت فكرته — على أصالتها — معبرة عن حق يمكن لأى فرد آخر أن يدركه ، ذلك لأن الفرد الواحد من الناس ليس فى حقيقة أمره فردا مستقلا قائما بذاته ، بل هو ممثل للانسانية كلها ، اذ الانسانية كلها حقيقة واحدة متصلة شاملة وان تشعبت فى رؤية العين أفرادا كأصابع اليد الواحدة تشعبت ، لكنها مع ذلك أصابع يد واحدة ، فسعادة الانسان فى فكره وفى عمله مرهونة بادراكه لهذه الحقيقة العليا ، وهى أنه حين يفكر وحين يعمل ، انما يفكر ويعمل لا بالأصالة عن نفسه فقط ، بل بالنيابة عن الانسانية كلها أيضا ، ان هنالك « انسانا واحدا » يتمثل

(١) المرجع نفسه ، مقالة « الإعتماد على النفس » ص ١٥١ .
(٢) المرجع نفسه ، مقالة « الإعتماد على النفس » ص ١٦١ .

فى كل فرد من أفراد النـاس ، فاذا عمل الفـرد عمـلا ، « فالانسان » الواحد العام هو الذى يعمل متخذا من ذلك الفرد المعين وسيلة للأداء ، واذا نبغ فرد فى علم أو فى فن ، فكذلك هو « الانسان » الواحد العام الذى نبغ ، وان يكن ذلك النبوغ قد ظهر فى عالم الواقع عن طريق ذلك الفرد المعين ، « ولابد لك أن تأخذ الجماعة كلها لكى تجد هذا الانسان كاملا ، ليس الانسان — الكلى العام — مزارعا فقط أو عالما فقط ، أو مهندسا فقط ، انما هو كل ذلك »[1] فاذا رأيت أفراد المجتمع الواحد قد تخصص كل منهم فى عمـل بذاته ، فهذا قسيس وهذا عالم ، وهذا سياسى ، وذلك مزارع أو جندى محارب ، فاعلم أن ذلك المجتمع المجزء الأفراد ان هو فى حقيقته الا « انسان » واحد ، ذو عقل واحد ، تفرع فى هؤلاء الأفراد ليعمل ما يريد أن يعمله عن طريق أعضائه ، واذن فالمهمة واحدة والهدف واحد والحياة واحدة ، وان يكن كل فرد قد أخذ منها بنصيب ، لا ليكون ذلك النصيب خاصا به مقصورا عليه ، بل ليكون هو النصيب الذى يؤديه بالنيابة عن بقية الأفراد ، ولو نظر كل منا الى نفسه على أنه وحدة مستقلة لكان ذلك شبيها ببتر الفرع عن جذعه ، أو شبيها بتقطيع أوصال الجسم الواحد ، بحيث يصبح كل عضو مبتور جزءا شائها فى ذاته مهما بلغ فى عمله أو فكره

(١) المرجع نفسه ، مقالة « العالم الأمريكى » ص ٢٦ .

من كمال . فكأنما الناس فى هذه الحالة يمشون على الأرض اصبعا وحدها ، أو رقبة ، أو معدة ، أو ما شئت من أجزاء البدن ، فمهما يبلغ كل جزء فى أداء عمله من الجودة والاتقان فليس هو بالانسان [1] .

على هذا الأساس — لا على أساس الأنانية وحب الذات — يدعو « امرسن » قومه ، بل يدعو كل فرد من الناس ، أن يستقل بفكره وأن يعتمد على نفسه ، مستوحيا عقله منصتا الى صوت ضميره ، لا يقلد ولا يتبع ، « فالعبقرية هى أن تعتقد فى رأيك ، وأن تعتقد أن ما هو صادق فى قلبك الخاص انما هو صادق للنـــاس جميعا ، فانطق بعقيدتك الباطنية تكن هذه العقيدة قولا معقولا للعالم أجمعين » [2] وكم يحدث لكل منا أن يدرك الفكرة المعينة فى عقله ، لكنه يمسك عن النطق بها استهانة بشأن نفسه ، واذا بهذه الفكرة عينها تجىء اليه فى أقوال النوابغ العظماء ، وعندئذ يتقبل رأيه الخاص صادرا اليه من غيره . فيأخذه شـــعور الخجل والصغار ، بعد أن كان من حقه الفخار والاعتداد بالنفس لو أنه عبَّر عما كانت نفسه قد جاشت به فى حينه .

انطق بما توحى اليك به نفسك الآن ، فما دمت صادق التعبير عن ذلك الوحى ، أمينا فى نقله وتصـــويره ، فقد

(١) المرجع السابق . مقالة « العالم الأمريكى » ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ، مقالة « الإعتماد على النفس » ص ١٢٨ .

أحسنت تمثيل العقل الأكبر الذى أنت جزء منه : قل ما يدور فى عقلك الآن ، ولا تخش أن يناقض قولا قلته أنت بالأمس ، فالفزع من وقوعنا فى التناقض كثيرا ما يفقدنا الثقة فى أنفسنا ، « هب أنك قد ناقضت نفسك ، فماذا وراء ذلك ؟ .. ان الثبات السخيف على رأى واحد هو فزع العقول الصغيرة هو الفزع الذى يخشاه صغار الساسة والفلاسفة ورجال الدين ، أما الروح العظيم فلا شأن له بمثل هذا الثبات ، والا فكأنه يأبه لظله فوق الحائط ، انطق بما تفكر فيه الآن فى ألفاظ قوية ، وانطق غدا بما تفكر فيه غدا فى ألفاظ قوية كذلك ، حتى ان ناقض كل ما قلته اليوم » [1] .

لماذا ينقل الأمريكى فكر زميله فى أوروبا أو فى أى جزء آخر من أجزاء العالم ؟ بل لماذا يقلد أى فرد أى فرد آخر ، وكل فرد يمثل الحقيقة العليا التى يمثلها زميله سواء بسواء ، وان اختلف الجانب الذى يمثلها فيه ؟ « اعتمد على نفسك ، ولا تقلد أبدا ، .. لك فى هذه اللحظة رسالة جريئة عظيمة كرسالة ازميل « فدياس » الضخم ، أو مسطار المصريين ، أو قلم « موسى » أو « دانتى » ، ولكنها تختلف عن كل هؤلاء ، ان الروح الفنية الفصيحة ذات اللسان الذى له ألف شق ، لا يمكن أن ترضى بتكرار نفسها ، لكنك لو استطعت أن تصغى الى ما يقوله هؤلاء الشيوخ أمكنك يقينا أن

(١) المرجع نفسه . والمقالة نفسها ، ص ١٣٨ .

تجيبهم بصوت مرتفع كصوتهم ، لأن الأذن واللسان عضوان من طبيعة واحدة ، فالزم دائرة حياتك الساذجة النبيلة ، وأطع قلبك ، تستعد الدنيا القديمة مرة أخرى » (١) .

ليس بين الأفراد من التفاوت بالقدر الذى يتوهمون ، « فالفروق بين الناس فى مواهبهم الطبيعية تافهة اذا قيست الى ثروتهم المشتركة » (٢) كيف لا ، ولكل عقل طريقته فى التعبير عما يدور فيه من حقائق نفسه ، وكل عقل انما يكشف عن سر نفسه ولا يستطيع أن يكشف عن سر عقل سواه ، « وهل تحسب أن حارس الباب أو الطاهى ليست له قصص أو تجارب أو عجائب ؟ كل فرد يعرف بقدر ما يعرف العالم ، فجدران العقول الساذجة مخططة كلها بالحقائق والأفكار ، ولسوف تظفر ذات يوم بمصباح وتقرأ المخطوط » (٣) « أنعم النظر فيما يستهويك فى « فلوطارخس » و « شكسبير » و « سرفانتيز » ، تجد أن كل حقيقه يحصل عليها كاتب هى مصباح يسلط كل ضوئه على الوقائع والأفكار التى كانت من قبل فى عقله ، ثم انظر الى ما يحدث بعد ذلك ، ترى الحصير والمهملات التى كانت منتشرة فى برجه قد أصبحت أشياء ثمينة ، فكل واقعة تافهة فى تاريخ حياته

(١) المرجع نفسه ، مقالة « الإعتماد على النفس » ص ١٦٢ .
(٢) المرجع نفسه ، مقالة « العقل » ص ٢٧٣ .
(٣) الصفحة نفسها من المرجع السابق .

الخاصة تمسى وسيلة لايضاح هذا المبدأ الجديد . وتعود الى وضح النهار ، وتستهوى الناس جميعا بقوتها وسحرها الجديد ، ويتساءل الناس : أنى له هذا ؟ ويظنون أن فى حياته شيئا مقدسا ، كلا ، ان لديهم ألوف الوقائع التى لا تقل عن ذلك قيمة ، وما عليهم الا أن يحصلوا على مصباح ينبشون فى ضوئه — هم كذلك — الطبقات العليا من ديارهم » [1] « ليس « بيكن » أو « سپينوزا » أو «هيوم» أو « شلنج » أو « كانت » أو غيرهم ، ممن يعرضون عليك فلسفة عقلية ، الا مترجما للأشياء التى فى وعيك ، والتى لك أنت كذلك سبيلك الى رؤيتها ، وربما الى التعبير عنها أيضا وترجمته محرفة قليلا أو كثيرا ، فقل اذن انه لم ينجح فى أن يرد اليك وعيك ، بدلا من أن تنكب متخاذلا على معانيه الغامضة ، انه لم ينجح ، فدع الآن غيره يحاول ، واذا كان أفلاطون لا يستطيع ، فربما استطاع « سپينوزا » واذا لم يستطع « سپينوزا » فربما استطاع « كانت » ، وعلى أية حال فلسوف تجد بعد هذا كله أن ما يرده اليك الكاتب ليس أمرا عويصا ، ولكنه بسيط طبيعى مألوف » [2] .

لما انطلق « امرسن » يملأ مسامع قومه بهذه الدعوة الى أن يستقل الانسان بفكره ، وبالتالى الى أن يستقل الأمريكيون

(١) مقالة « العقل » ص ٢٧٤ .

(٢) مقالة « العقل » ص ٢٨٥ .

بتفكيرهم ، كان فى الحقيقة صادرا فى دعوته تلك عن ثورة عميقة على رجال « التنوير » والثورة ، يقتلع الفلسفة التى بنـوا عليها نظريتهم السياسـية من جذورها ويهدمها من أساسها ، ألم يكن مصدر هؤلاء الساسة علم « نيوتن » وفلسفة « لوك » ؟ ثم أليس ذلك العلم وهذه الفلسفة قائمين على المشاهدات الحسية والتجارب ، فعلم الطبيعة يبنى على شهادة الحواس ، وفلسفة « لوك » تدور حول خبرة الحواس تحللها وتصنفها ؟ ولكن ما بالحواس يدرك الانسان حقائق الأشياء وان أدرك بها ظواهرها ، وانما يكون العلم بحقيقة الكون بوسيلة أخرى غير الحس ، هى وسيلة الحدس ، أو العيان العقلى المباشر ، وهل يدرك الانسان ذاته بالبصر أو بالسمع ؟ كلا ، ان الانسان ليدرك ذاته وفحواها بالنظر الداخلى الى نفسه فيراها رؤية مباشرة ، وهكذا يكون ادراك الحق كيفما كان .

هى نزعة مثالية سادت بعد الموجة التجريبية التى اشتملت التفكير فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، نزعة مثالية لم يقتصر أمرها على أمريكا ، بل فاضت من ينبوع المثالية الألمانية كما تدفق فى فلسفة «كانت» و «شلنج» و «هيجل» . وكان مجرى الفيض ذا شعبتين : فشعبة منهما اندفقت فى انجلترا على يدى شاعرها « كولردج » (١٧٧٢ — ١٨٣٤) واندفقت الأخرى فى الولايات المتحدة الأمريكية على لسان شاعرها

« امرسن » ؛ وقد يكون أقرب الى الصواب أن نقول ان المثالية الألمانية وجدت فى الشاعر الانجليزى « كولردج » مؤيدا ونصيرا ، فقرأ الأمريكيون ما كتبه « كولردج » وتأثروا به ، ومن ثم أخذ تيار الفكر بينهم ينحرف من تجريبية « لوك » التى سادت عصر التنوير والثورة الى مثالية الألمان بصفة عامة ومثالية « هيجل » بصفة خاصة .

ولم يكن هذا الاتجاه المثالى فى فلسفة النصف الأول من القرن التاسع عشر — فى أوروبا وفى أمريكا على السواء — الا جانبا من النزعة الرومانتيكية التى اصطبغ بها الأدب والفكر بصفة عامة ابان تلك الفترة ، فلئن كان القرن الثامن عشر عصرا ساده تغليب العقل ومنطقه فى العلم وفى الفلسفة وفى الأدب جميعا ، حتى لقد أطلقوا عليه بحق اسم عصر « التنوير » وهم يقصدون بالكلمة اعتماد الانسان على عقله يعلل به كل ما أشكل عليه من جوانب الحياة والطبيعة ، فقد جاء القرن التاسع عشر فى نصفه الأول ردا لفعل حركة التنوير ، فكانت الرومانتيكية فى الأدب ، وكانت المثالية فى الفلسفة ، وكانت العودة الى الايمان فى الدين ، بل امتزجت هذه الاتجاهات كلها بعضها ببعض وأصبح مزيجها طابع ذلك العصر .

فالمثالية فى الفلسفة اذا نظرت اليها من زاوية الدين ، وجدتها سخطا على النتائج التى ترتبت على المبادىء العقلية خلال

حركة « التنوير » مما يمس العقائد الدينية ، اذ انتهت تلك الحركة اما الى انكار صريح لتلك العقائد ، كما حدث فى فرنسا مثلا ، واما الى تنكر للعقائد التى تبنى على الخرافة والتصديق ، ومحاولة اقامة مجموعة أخرى من العقائد محلها تتفق مع المنطق العقلى ومع العلم ومع شهادة الحواس ، فأراد المثاليون أن يركنوا الى وسيلة أخرى لادراك الله والايمان بوجوده غير وسيلة العقل والحس ، فجعلوا الحدس — أى العيان العقلى المباشر — وسيلة الاتصال بين الانسان وربه ، فبهذا الادراك الحدسى المباشر يجاوز الانسان حدود الطبيعة المحسوسة وحدود العقل وشروطه ، بل يجاوز النصوص التقليدية والكنائس ونظامها ، يجاوز كل ذلك الى الحق الكائن وراءها ، أو ان شئت فقل انه حق كائن فوقها جميعا ، فيستطيع الاتصال بالله صلة مباشرة فيعرفه معرفة اليقين ، وبهذا تكون الطبيعة ونظامها من شأن العلم وأداته التى هى العقل والحواس ، وأما ما فوق الطبيعة ، وهو الحق المطلق من قيود الزمان والمكان ، فيكون من شأن الدين ، وأداته فى الادراك هى الحدس ، واذا نظرت الى المثالية فى الفلسفة من زاوية السياسة وجدتها كذلك تخدم الديمقراطية فى أغراضها ، ألم يؤسس قادة الثورة السياسية مذهبهم فى حقوق الانسان على أن هذه الحقوق جزء من طبيعة الانسان يولد بها ولا يمنحها أحد لأحد ؟ ثم ألم يبنوا طبيعية الحقوق

الانسانية على أساس من فلسفة « لوك » فى تحليل العقل الانسانى وطريقة ادراكه للأشياء الخارجية كما فصلنا ذلك فى الفصل الأول ؛ فهكذا يفعل أنصار الفلسفة المثالية أيضا ، اذ يقولون ان ادراك الله بالحدس المباشر جزء لا يتجزأ من طبيعة الانسان ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، والناس جميعا فى هذه القدرة سواء ، فيكفى أن يكون الانسان انسانا لتكون له القدرة على استخدام حدسه فى الادراك ، واذن فللناس جميعا قيمة ادراكية واحدة متساوية ، فهم من الوجهة الروحانية سواء ، وبالتالى فهم من الوجهة السياسية سواء كذلك .

كذلك اذا نظرت الى المثالية الفلسفية من وجهة نظر الاصلاح الدينى ، ألفيتها أداة نافعة ، فالمثاليون — كالتجريبيين من قبلهم — متفقون على أن الكنيسة لابد أن تحطم قيودها الجامدة أو يحطموا هم قيودها المفروضة عليهم فيحرروا أنفسهم من الاعتقادية الساذجة ، لأنه اذا كان الادراك الحدسى هو مدار المثالية ، أى أنه اذا كان فى مستطاع الانسان بحكم طبيعته أن يحدس الله حدوسا مباشرا ، فما ضرورة الكنيسة ونظامها ورجالها لسلامة العقيدة ؟ ان الصلة بين الانسان وربه صلة مباشرة قبل كل شىء ، وكل ما يحول دون هذه الصلة الادراكية المباشرة فهو عقبة فى سبيل الوصول الى الحق جديرة بالازدراء والاهمال ، والعلم

والكنيسة معا يحولان دون الحدس وادراكه للحقيقة المطلقة أما العلم فلأنه يقيد الانسان بقيود المشاهدات الحسية والتجارب العلمية ، وما ليس يطرد وقوعه من الظواهر لا قيمة له فى رأى العلم ، وهذه القيود انما تعطل ادراك الانسان بغير موجب ، فماذا لو جاوز الانسان بجناحى ادراكه الحدسى حدود المشاهدات والتجارب واطراد الظواهر ؟ وأما الكنيسة فهى الأخرى تضع من أصفاد نظامها ما يستحيل معه التفكير الحر الذى ينفذ الى الحقيقة فيراها مباشرة كما ترى العين ضوء الشمس ، وفى ذلك يقول « ثورو » — الذى سنحدثك عنه بعد قليل — « لابد أن تخرج من المسيحية لتدرك ما فى حياة المسيح من جمال ومغزى » .

لقد أخطأ رجال اللاهوت السابقون — فى رأى المثاليين الذين نحن الآن بصدد الحديث عنهم — أخطأوا حين ظنوا أننا ندرك وجود الله من وجود مخلوقاته ، فذلك لا يكون الا اعتمادا على الحواس من جهة والعقل من جهة أخرى ، أما وجود الله فى رأى المثاليين فمفارق للطبيعة مجاوز لحدودها ، فلسنا بحاجة الى حس أو عقل ، بل نحن بحاجة الى حدس ندرك به وجود الله فى الجوانب الالهية التى فى طبائعنا ، ان الانسان شبيه الله ، فحسبك أن تحدس ذاتك لتدرك فيها وجود شبيهها ، وعندئذ يصبح الله موجودا

وجودا حقيقيا يقينيا ، ولن تكون بعد ذلك بحاجة الى كتاب أو الى قسيس يهديك الى وجوده .

ها هى ذى نزعة دينية تقف موقفا وسطا بين طرفين ، فلا هى الاعتقادية الجامدة التى تنبنى على اللاهوت القديم ، ولا هى الحاد أو ما يشبه الالحاد مما قد ترتب على حركة التنوير العقلى ، والفلسفة التى يقوم عليها هذا اللون الوسط من التدين هى المثالية الألمانية ، وخصوصا مثالية « هيجل » التى تولى نشرها فى انجلترا شاعرها « كولردج » ، ثم كان بين ناشريها فى الولايات المتحدة شاعرها « امرسن » ، فما هى مثالية « هيجل » فى خلاصة قصيرة ؟

يبنى « هيجل » (١٧٧٠ — ١٨٣١) فلسفته على فكرة « المطلق » ، ومؤداها أن الأفراد الجزئية التى نراها فى الطبيعة المحسوسة من حولنا ، ان هى الا صور تبدت فيها روح كانت فى بداية أمرها مطلقة من قيود المكان والزمان ، أى أنها لم تكن تعلن عن نفسها فى نقطة معينة من المكان ولا فى لحظة معينة من الزمان ، لأنها لا مكانية ولا زمانية ، هى روح لم تبدأ فى سلسلة الزمن بلحظة معينة ، ولن تنتهى فى سلسلة الزمن عند لحظة معينة ، ، بل هى أزلية أبدية ، ثم أعلنت تلك الروح عن نفسها فى الطبيعة وكائناتها اعلانا كان فى بداية أمره مقتصرا على درجة دنيا من اللاشعور ، ثم صعدت على درجات من التطور حتى عادت فاستيقظت شعورا ووعيا

فى الانسان ، وستعود الروح المطلقة الى نفسها من جديد مدركة لنفسها ادراكا كاملا ، واذن فكل شىء فى الوجود هو تلك الروح المطلقة ، أو ذلك العقل المطلق ، قد عبر عن نفسه على هذه الصورة أو تلك ، كما يعبر الشاعر — مثلا — عن نفسه فى قصائد مختلفة تتفاوت فى درجة الكمال ، لكنها على تفاوتها تفصح عن نفس قائلها ، وكما تنظر الى كل قصيدة فى ديوان الشاعر فترى خلالها روح الشاعر ، فكذلك تستطيع أن تنظر الى كل كائن فى الطبيعة من حولك : الى هذه الجبال والأنهار والأشجار والحيوان والانسان ، فترى فى كل واحد منها ذلك العقل المطلق قد بسط نفسه فى كائن جزئى متعين ، وهكذا تكون الطبيعة بكل ما فيها عقلا مرئيا مسموعا — ان صح هذا التعبير — ولا سبيل الى فهم كائن جزئى الا بنسبته الى ذلك الكل المطلق الشامل .

وقد تنظر الى كائن جزئى ، كهذه الشجرة أو هذا الطائر أو ذلك الفرد من بنى الانسان ، فيخيل اليك أنه كائن قائم بذاته مستقل بنفسه ، لكن أمعن النظر قليلا تجده فى حقيقة أمره جزءا من كل ، وأن هذا الكل هو الكون بأسره ، فكيف تدرك هذه الشجرة — مثلا — ادراكا تاما الا اذا أدركت علاقتها بالأرض التى تنبتها وتغذيها ، وبالماء الذى يرويها ، وبالشمس التى تنميها ؟ ثم كيف تدرك الأرض والماء

والشمس ، كلا بدوره ، الا اذا أدركت علاقاته بسائر أجزاء المجموعة الشمسية ؟ والمجموعة الشمسية بدورها لا يتم العلم بها الا بعد العلم بما يصلها بسائر الكون من روابط وصلات ، ان شأن الكائن الجزئى فى هذا الصدد كشأن النظرية الواحدة فى سلسلة النظريات الهندسية عند اقليدس، لا تفهم على حدة ، بل لابد لفهمها وادراكها ادراكا كاملا من ادراك الروابط المنطقية التى تصلها بما قبلها وبما بعدها من نظريات ، لابد أن نعلم كيف جاءت نتيجة لسوابقها ، وكيف تكون مقدمة للواحقها ، وبهذا يتكون من مجموعة النظريات نسق واحد ، لا يمكن فهم جزء من أجزائه الا فى ضوء العلم بسائر الأجزاء ، ، كما أن سائر الأجزاء لا يمكن العلم بها الا مع صلتها بذلك الجزء الواحد ، وهكذا قل فى الكون وأجزائه ، الذى هو العقل المطلق قد حقق نفسه وأعلن عنها ، فالكون بشتى أجزائه نسق متصل ، كل جزء من أجزائه مرتبط بسائر الأجزاء وان بدا أمام العين منفصلا مستقلا قائما بذاته ، هذا الكل المترابط ان هو الا كائن عضوى واحد ، لم توضع أجزاؤه وأعضاؤه وضع التجاور فى المكان والتعاقب فى الزمان ، دون أن يكون بينها فوق ذلك صلة عليا تربطها معا ، كلا ، بل هى كأعضاء الكائن العضوى الحى ، متصل بعضها ببعض على نحو يجعل الكائن كله متمثلا فى كل عضو من أعضائه ، وتجعل كل عضو مستحيل الفهم الا على ضوء الكل الذى يحتويه .

ان حصر الانتباه فى كائن جزئى واحد على أنه وحدة مستقلة بذاتها ، قد يوهم الرائى أن الكون ينطوى على أضداد ، حين يرى فى جنبات الكون من الحقائق الجزئية ما يعاند بعضها بعضا ، لكن هذه الأضداد سرعان ما يتبين لنا أنها فى حقيقة الأمر أجزاء من كل متناسق ، اذا ما علونا بالنظر اليها بحيث رأينا كل ضد منها — لا هو جزئى مستقل قائم وحده — بل رأيناه فى صلاته بغيره ، فعندئذ يتبين فى جلاء أن كل جزء موجود من أجل الكل وبسببه ، ولكن على الرغم من أن الأجزاء كلها ضرورية لابد من وجودها ، فانها تقف ازاء بعضها موقف التفاوت ضعة ورفعة فى سلم التطور والترقى ، المراتب السفلى منها تنتقل الى العليا ولكنها لا تنمحى من الوجود فى عملية الانتقال ، وكل ما يحدث لها هو التحول من صورة سفلى الى صورة عليا ، « ان كم الزهرة يختفى اذا ما تفتحت الزهرة ، فيخيل اليك أن بين الكم والزهرة تضادا ، ثم تجىء الثمرة بعدئذ فتعلن بوجودها أن الزهرة صورة دنيا من صور وجود النبات ، وهكذا تنتقل حقيقة كل واحدة منها الى حقيقة الأخرى ، وليست هذه الصور متميزا بعضها عن بعض فحسب ، بل ان الواحدة منها لتسحق الأخرى باعتبارها مضادة لها ، ولكن طبيعتها التى تسرى فيها كلها تكون منها دقائق من الوحدة العضوية التى تتآخى فيها ،

فلا تعارض احداها الأخرى ، بل ان الأمر بينها لا يقف عند حد عدم التعارض ، ولكن كلا منها يكون لوجوده من الضرورة ما للأخرى تماما ، ومن هذه المساواة بين الأجزاء فى ضرورة وجودها تتألف حياة الكل الذى يحتويها جميعا »

هكذا يعرض العقل المطلق نفسه فى الطبيعة على مراحل متعاقبة يرتبط بعضها ببعض بنفس الروابط التى تصل أجزاء الفكر بعضها ببعض ، ومن هنا كان منطق العقل هو نفسه منطق الطبيعة ، أو — بعبارة أخرى — كان الفكر من جهة والحقيقة الخارجية من جهة أخرى كائنا واحدا ، الثانية منهما تعبير عن الأولى ، والأولى منهما متحققة فى الثانية ، ان الوحدة التى تربط الفكر من جهة والطبيعة من جهة أخرى ليست هى مجرد الصلة بين طرفين ، بل هى وحدة أعلى من الطرفين معا ، اذ لا ينبغى أن تعد الطبيعة وجودا آخر الى جانب العقل الذى يدركها ، لأن الطبيعة هى جزء من حياة العقل نفسه .

على ضوء هذه الفلسفة المثالية الهيجلية تستطيع أن تفهم « امرسن » فى شتى نواحيه ، تستطيع أن تفهمه حين يتخذ من الحدس وحده وسيلة الادراك الحقيقى ، اذ كيف تدرك العقل المطلق المتحقق فى الطبيعة اذا قصرت نفسك على حواسك ومشاهداتها ، أو على عقلك وحجاجه ، وتستطيع أن تفهمه حين يقرر أن الفرد الواحد من بنى الانسان ليس

فى الحقيقة فردا منفصلا بذاته ، بل هو « العضو المنتدب » من قبل الروح المطلق الذى نحن جميعا ممثلوه ، فالزارع — مثـلا — ليس زارعا لنفسه فحسب ، بل هو زارع « بالنيـابة » عن الحقيقة الكلية التى نحن أعضـاؤها ، ونستطيع أن نفهمه حين يتنكر لعلم الطبيعة فى طريقة فهمه للطبيعة ، لأنه يقف عند الجزئيات الظاهرة ، مع أن الطبيعة فى حقيقتها تعبير واحد متصل الأجزاء عن عقل مطلق يعبر عن نفسه فيها ، وسبيل معرفة ذلك هو حدس المتصوف لا منظار العالم ، وتستطيع أن تفهمه حين يجعل الفـكر والطبيعة خطين متوازيين ، فلا واقعة أو حادثة من وقائع الطبيعة وحوادثها الا ولها أصل يصورها فى الفكر .

بعد أن أتم « امرسن » دراسـته الدينية فى جامعة « هارڤارد » عام ١٨٢٩ ، عين واعظا فى الكنيسة التى كان أبوه راعيا لها — فهو سليل أسرة عريقة من رجال الدين — لكنه سرعان ما تبين هوة سحيقة تفصل بينه وبين سامعيه ، كان قد قرأ المثالية الهيجلية كما نقلها « كولردج » شاعر الانجليز عندئذ ، فتأثر بما قرأ ، وأخلص لفكرته التى انتهى اليهـا ، فبعدت مسافة الخلف بينه وبين من يختلفون الى الكنيسة ليسمعهم الموعظة ، فلم يجد بدا من الاسـتقالة ، اذ استحال عليه أن يوفق بين واجب مهنته واملاء ضميره ، فسافر الى أوروبا لعله مسترد بهذه الرحلة عافية لجسده

العليل ، وصحة لروحه التى أحس كأنما هى ريشة فى مهب العواصف ، فقصد — فيما قصد اليه من ربوع أوروبا — الى انجلترا حيث التقى بأبطاله فى الفكر والروح : « كولردج » و « وردزورث » و « كارلايل » ، ثم عاد الى وطنه الأمريكى بعد عام وهو معافى البدن مستقر الروح على هدف لم يعد يحيد عنه ، وكانت الفكرة الرئيسية التى كشف عنها الغطاء فى نفسه — كشف عنها كشفا مستقلا عن كل قراءة قرأها أو رأى استمع اليه — هى أن فى مقدور الانسان أن يرى الله فى أعماق قلبه ، وأنه اذا أنصت الانسان الى ضميره بأذن مصغية واعية سمع صوت الله فى دخيلة نفسه ، فان كان ذلك كذلك فقد أصبح واجبه أن يهدى الناس الى ما اهتدى اليه .

ولم يكد يستقر به المقام عاما بعد عودته من أوروبا الى بلاده ، حتى أخرج سنة ١٨٣٦ كتابا صغيرا أسماه « الطبيعة » عبر فيه عن هذا الكشف الروحى ، ونشر من كتابه هذا خمسمائة نسخة غفلا من اسم المؤلف ، لكن الكتاب لم يصادف عند القارئين رواجا ، رغم اللقاء الجميل الذى تقبله به « كارلايل » .

وفى العام التالى — عام ١٨٣٧ — ألقى خطابه المشهور فى هارفارد ، بعنوان « العالم الأمريكى » الذى توجه بالكلام فيه الى قادة الفكر فى بلاده ، ثم فى العام الذى تلاه

— عام ١٨٣٨ — ألقى خطابه العظيم « الى المتخرجين فى كلية اللاهوت » قصد به الى القائمين بالوعظ الدينى ، ويمكن القول بصفة عامة ان حياته الفكرية بعد ذلك جاءت تعليقات وشروحا وتفريعات لما ورد فى هذه الأعمال الثلاثة : كتاب الطبيعة ، والخطابين المذكورين .

والفكرة الرئيسية الأولى هى — كما أسلفنا — أن الحدس — الاتصال الروحانى المباشر — وسيلة ادراك الحقيقة المطلقة التى تعلن عن نفسها فى الطبيعة وكائناتها ، كل حالة من حالات الادراك الحدسى قائمة بذاتها ، تستمد صوابها من نفسها ، لا تعتمد على مقدمات تسبقها أو نتائج تلزم عنها ، الادراك الحدسى صوابه يقينى حتى اذا ناقض ما سبقه وما تلاه ، فمثلا عندما هجم فى خطابه « الى المتخرجين فى كلية اللاهوت » على المسيحية كما تظهر فى الشعائر الكنسية والتقاليد الدينية ، طالبه رجال الدين عندئذ بالحجة التى تؤيده ، فقال : لا حجة عندى ، بل لست أعرف كيف يمكن أن تتأيد الفكرة بالحجة ، فهكذا أرى الحق بحدسى ، ومع ذلك فليس ما يراه الفرد الواحد فى دخيلة نفسه بحدسه بمقتصر — من حيث صدقه — على ذلك الفرد وحده ، بل ان ما يهتدى به الفرد الواحد من نظره الى دخيلة نفسه صالح كذلك لهداية سائر أفراد البشر ، « ان الله يدخل الى كل فرد من باب خاص » [١] « والتفكير كالوحى يهبط على

---

(١) مختارات من إمرسن ، ترجمة الأستاذ محمود محمود ، مقالة « العقل » ص ٢٦٩

الرجل التقى » [1] فقد يقول الانسان لنفسه وهو يفكر فى فكرة تراوغه وتفلت منه : « سوف أمشى خارج بيتى وعندئذ ستتخذ الحقيقة صورتها وتتضح ، ثم تنطلق ، ولكنك لا تعثر عليها ، ثم يبدو لك أنك بحاجة الى السكون والجلسة الهادئة فى المكتبة لتظفر بالفكرة ، ولكنك تدخلها ، فاذا هى بعيدة عنك كما كانت ، ثم ما هى الا أن تظهر لك الحقيقة فى لحظة وعلى غير انتظار ، اذ يظهر لك ضوء شارد ، وفى وضحه يظهر لك المبدأ الذى تنشده » [2] واذا ما أدرك الفرد الواحد صوابا ، كان ذلك الصواب صوابا عند كل انسان آخر « فطبيعة كل فرد هى اعلان كاف له عن خصائص زملائه ، الصواب والخطأ عندى هما الصواب والخطأ عندهم » [3] .

الفرد الواحد ممثل للبشرية كلها لو أخلص حدس نفسه والتعبير عنها ، فليس التمثيل النيابى فى عالم السياسة — ذلك التمثيل الذى يعتمد على عد الأصوات — بشىء يذكر الى جانب التمثيل الروحانى الذى يجعل فردا بعينه لسانا ناطقا معبرا عن زملائه فى الانسانية ، مع أن هذا النائب الروحانى الناطق المعبر عن البشرية كلها يختار نفسه

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٣ .
(٣) نفس المرجع ، مقالة « السياسة » ، ص ٤٤٥ .

ولا يختاره أحد ، وحسبه للظفر بهذا الشرف أن يحسن النظر الى طبيعة ذاته وأن يحسن الانصات الى صوت ضميره ، لأن ذلك الصوت ان هو الا صوت الله فى صدره وفؤاده ، ان المتأمل فى نفسه ، الصادق فى التعبير عنها ، انما يجاوز حدود نفسه الى حيث الوجود فى قلبه وصميمه ، يجاوزها الى حيث الله ، « ان المتحمسين للدين ليتفقون فى نهاية الأمر مع أبرد المتشككين نفسا على أننا (فى الخلق الفنى والابداع الفكرى) لا نأتى بشىء من عندنا ومن نتاج عملنا ، انما كل شىء من الله .. كل كتابة تهبط علينا بفضل من الله ، وكذلك كل عمل وكل ما نملك » (١) ألا ما أكثر أن يريد الفرد شيئا فاذا هو منتج لشىء آخر « ان نتائج الحياة لم تحسب ولا يمكن حسابها .. والأشخاص الذين تتألف منهم صحبتنا ، يتحدثون ويجيئون ويذهبون ، ويصممون وينفذون الكثير ، وينجم عن كل هذا أى شىء الا ما نتوقع من نتائج » (٢) يخطىء الفرد دائما اذا ما ظن أنه قد حسب لكل شىء حسابه ، فهنالك عقل كلى ، ما عقول الأفراد الا أجزاء منه ، كل واحد منا تجسيد لذلك العقل الكلى ، فهو يستطيع أن يتصل بذلك الكل اتصالا مباشرا ليستوحيه الحق ، فان فعل كان بذلك ممثلا لسائر الأفراد ،

(١) المرجع السابق ، مقالة « الخبرة » ، ص ٣٥١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٥٢ .

لأنه عندئذ انما يحيا حياة العقل الكلى لا حياة عقله الفردى باعتباره فردا مستقلا ، « اننى حين أقف على الأرض العارية ورأسى مغموس فى الهواء الطاهر مشرئبا الى اللانهائى ، تزول عنى فرديتى الوضيعة ، وأصبح كانسان العين شفافا ، أصبح (بذاتى) لا شىء ، لكنى عندئذ أشهد الحقيقة الكلية ، وتدور فى نفسى تيارات الوجود الكلى » (١).

يريد « امرسن » للانسان أن يدرس الطبيعة ، لكن أى طبيعة يعنى ؟ ليست هى الطبيعة التى قصد الى دراستها « نيوتن » ، الطبيعة الثابتة فى اطراد ظواهرها ، والتى تسير فى مجراها بغض النظر عن الانسان ، بل الطبيعة التى يطويها الانسان تحت سلطان شعوره الذاتى ، هى طبيعة الشاعر لا طبيعة العالم ، هى الطبيعة بعد أن نضفى عليها أنفسنا وحياتنا وفكرنا ومشاعرنا ، هى الطبيعة التى نجدها مفرقة موزعة مجزأة فننسقها كونا واحدا ، بحيث نرى العلاقة بين الشمس الطالعة وزقزقة العصفور ، هى الطبيعة كما تلتقى فيها خيوط الانسان الروحية فتكون ملكا له لا تلك التى يخضع لها الانسان ويكون ملكا لها ، لو نظر الانسان الى الطبيعة هذه النظرة التى تجعلها جزءا منه ، أو ان شئت فقل تجعله جزءا منها ، فعندئذ يزول شعور الانسان بانفصاله عنها ، ولا تصبح ثنائية بين الذات من جهة والموضوع من

---

(١) كتاب « الطبيعة » لناشره جوزف بلاو Joseph Blau ، ص ٤ .

جهة أخرى ، بل تصبح الذات العارفة والموضوع المعروف شيئا واحدا متصل الوجهين ، عندئذ يشعر الانسان شعورا حيا بما بينه وبين الطبيعة من وشائج القربى ، ان الطبيعة لا تبوح بسرها لمن يتناولها كما يتناول الجثة الميتة يشرحها بمبضعه ، بل تبوح بسرها الدفين لمن يقبل عليها اقبال العاشق، اقبال من يريد أن ينمحى فى أحضانها ، فلئن كان العالم يبحث فى الطبيعة عن وجهها الموضوعى الثابت الذى لا يتغير على مر الزمان ، فالشاعر ينشد فيها وجوهها المتغيرة أبدا المتجددة أبدا ، فهذه الطبيعة الحية الدفاقة هى وحدها التى تعكس للانسان حالاته فى حالاتها ، تعبس لعبوسه وتفرح لفرحه .

وما كل انسان بقادر على أن يصعد فى ادراكه للطبيعة الى هذه القمة الا بعد تدريب وتهذيب ، فهنالك — على وجه الاجمال — درجات أربع فى علاقتنا بالطبيعة ، تتفاوت فيما بينها انخفاضا وارتفاعا ، وكلما ازداد الانسان روحانية فى علاقته بالطبيعة صعد فى تلك الدرجات الأربع درجة بعد درجة ، وأولى تلك الدرجات وأدناها هى علاقة المنفعة ، فمن الطبيعة نأكل ونرتوى ونصنع الثياب والمنازل ، وحتى فى هذه الدرجة الدنيا تستطيع أن ترى أنه بغير الحب الالهى يكون محالا على الطبيعة أن تنفع وعلى الانسان أن ينتفع ، ذلك لأن المنفعة لا تتم فى كل حالة من حالاتها الا بسلسلة

طويلة من تعاون الأجزاء واتساق الظواهر الطبيعية بحيث تنتهى الى النتيجة المطلوبة لنفع الانسان ، فلا الشمس وحدها ولا الريح ولا المطر ولا النبات ولا الحيوان وحده ينفع الانسان ، بل لابد من اجتماع هذه العناصر كلها متعاونة متناصرة متآخية «فالريح تبذر الحب ، والشمس تبخر ماء البحر والريح تدفع البخار الى الزرع ، والمطر يروى النبات والنبات يطعم الحيوان » [1] وكل ذلك ضرورى لغذاء الانسان .

وتأتى بعد درجة الانتفاع المادى درجة أعلى ، هى أن أدرك ما فى الطبيعة من جمال ، انك قد تنظر الى الثمرة نظرتك الى الغذاء ، لكنك كذلك قد تنظر اليها نظرتك الى الشىء الجميل قد سوّاه الله وصوره فأكمل التسوية والتصوير ، ها هنا فى هذه المرحلة تزداد فاعليتك الخالقة ، اذ تضفى على الطبيعة من نفسك كمالا من كمالها وجمالا من جمالها ، وفى هذه المرحلة أخلاق وفيها تفكير ، أما الأخلاق ففى اتساق النغم بينك وبين مشاهد الطبيعة ، اذ ستكون العلاقة بينك وبينها أقرب شىء الى العلاقة بين العازف والآلة التى يعزف عليها ، وهل الفضيلة الا الجمال ؟ كلاهما فى الاتساق والتناغم ، الفعل الفاضل هو الذى يلتزم الحدود المعقولة وكذلك الشىء الجميل ، وأما التفكير فهو فى اعمال الانسان فكره فى هذا الجمال الذى يشهده ، الجمال والفضيلة

---

(١) كتاب « الطبيعة » — نشر « جوزف بلاو » — ص ٧٠٦ .

والفكر كلها جوانب متصل بعضها ببعض ، الحق والجمال والخير ثلاثة خيوط من نسيج واحد ، فبالحق ندرك ما ندركه ، وبالجمال نقدره ونعشقه وبالخير نفعل الصواب الذى يمليه ادراكنا للحق واحساسنا بحبه ، وهذه النواحى الثلاث كلها متضمنة فى ادراكنا للطبيعة من الوجهة الجمالية ، لأن ادراك الجمال وحده كاف لخلق الفضيلة والكشف عن الحق .

والدرجة الثالثة فى علاقة الانسان بالطبيعة هى ادراكه لما بين وقائعها وحوادثها من جهة وفكره من جهة أخرى من تواز ، فكل ما يجرى فى الطبيعة له صورته فى فكر الانسان اذ بين الأفكار والأشياء تطابق تام كامل ، بحيث يستحيل أن يكون هنالك فكرة بغير مدلولها فى الطبيعة ، أو أن يكون فى الطبيعة شىء دون أن تقابله حالة من حالات الفكر والروح ؛ والعقل — أو الروح — بصفة عامة تقابله الطبيعة بصفة عامة ، واذن فهناك التقابل بين الكل الروحى والكل الطبيعى كما أن هنالك التقابل بين كل حالة هنا وحالة هناك ، ولما كان تسلسل الحالات العقلية هو نفسه تسلسل ظواهر الطبيعة ، كان منطق الفكر هو نفسه منطق الأشياء ، لا فرق بين ما يحدث فى العقل وما يحدث فى الطبيعة الخارجية « قانون الأشياء هو كذلك قانون العقل البشرى ، يكتشف الفلكى أن الهندسة — وهى تجريد مطلق للعقل البشرى — هى قياس حركة الكواكب ، ويكتشف الكيميائى النسب والقواعد

المعقولة فى المادة كلها ، وليس العلم سوى كشف التشابه والتطابق الذى يكون بين الأجزاء التى تبدو متباينة متباعدة .. وهكذا يلمح الصبى الدارس وهو تحت قبة النهار المستديرة أنه هو والطبيعة قد نشآ من جذر واحد ، أحدهما ورقة والآخر زهرة.. سوف يرى أن الطبيعة تجابه الروح ، وتجيبها جزءا بجزء ، أحدهما خاتم والثانى مختوم ، جمالها جمال عقله ، عندئذ تصبح الطبيعة لديه هى مقدار ما يحصله ، وبمقدار ما يجهل من الطبيعة يكون القدر الذى لا يملكه من عقله ، وفى عبارة موجزة يصبح المبدأ القديم : « اعرف نفسك » ، والمبدأ الجديد : « ادرس الطبيعة » فى النهاية مبدأ واحدا » (١) .

وآخر الدرجات الأربع التى يتدرج فيها الانسان مع ارتقائه فى علاقته بالطبيعة ، هى درجة الرياضة الروحية التى يرتاضها الانسان عندما يتعلم من الطبيعة كيف تتسق الأجزاء فى كل واحد متزن متجاوب موصول الأطراف ، عندما يتعلم أن الطبيعة على اختلاف كائناتها وتنوع مخلوقاتها ان هى الا وحدة واحدة تستهدف غاية وتسير نحوها ، ألا ان بين كائنات الكون من أوجه الشبه ما يزيد كثيرا على ما بينها من أوجه الاختلاف ، ان كل شىء فى جنبات الطبيعة ، من

---

(١) مقالة « العالم الأمريكى » ، الترجمة العربية فى « مختارات من إمرسن » ص ٢٩ – ٣٠ .

الحيوان الأدنى الى الانسان الأعلى ، صارخ بقوانين الصواب والخطأ ، فى الطبيعة وحدة وثيقة العرى ، حتى ليستحيل أن تكون بغير روح كلى واحد منبث فيها ، تراه فى الفكر ومنطقه كما تراه فى الأشياء وتسلسلها سواء بسواء .

٢ ـ « هنرى ديفد ثورو »(١) والفردية المتطرفة :

كثيرا ما تبدأ الدعوة الى مذهب فكرى معين دون أن تكون مكنونات هذا المذهب قد ظهرت كلها ظهورا واضحا عند الدعوة الأولى ، فيجىء الأتباع بعدئذ واحدا بعد واحد ليستخرجوا الى وضح النهار ما كان خبيئا كامنا ، ويدفعوا بمبادىء المذهب خطوة بعد خطوة الى آخر نتائجها المنطقية ، فاذا هذه النتائج تبدو غريبة حتى على أصحاب المذهب الأولين أنفسهم ، لأنهم حين أخذوا يدعون الى مذهبهم هذا ، لم يكونوا قد تبينوا دفعة واحدة كل ما تنطوى عليه مبادئه .

فهاهم أولاء بناة الدستور الأمريكى ومعلنو استقلالها قد اعتمدوا على أساس من فلسفة « لوك » (انظر الفصل الأول) فقرروا أن للانسان حقوقا طبيعية ، يتمتع بها بحكم فطرته ، وهبها له الله ولم يهبها سلطان حاكم ، ولذلك فهى ملكه الذى لا يشاركه فيه انسان ، ومن تلك الحقوق الطبيعية الفطرية — كما ورد فى وثيقة « اعلان الاستقلال » — حق

(١) Henry David Thoreau

الحياة وحق الحرية وحق التماس السعادة ، فان كان الأفراد قد تنازلوا عن بعض حقوقهم هذه للدولة ، لقاء ما تتعهد به الدولة من صيانة الحقوق التى احتفظوا بها لأنفسهم ولم يتنازلوا عنها فيما تنازلوا ، فما ذلك الا بموافقتهم ورضاهم ، هم الذين أقاموا الدولة باختيارهم ، وهم الذين يزيلونها اذا ما قصرت فى أداء واجبها الذى تعهدت لهم بأدائه ، وقد كانت الحقوق التى تنازل الأفراد عن بعضها مما يمكن التنازل عنه ، لكن هنالك جانبا من الانسان خاصا به ، سيظل ملكا له ، يستحيل أن يشمله التنازل ، وهو جانب الروح ، أو العقل ، فليس للدولة كائنة ما كانت ، بل ليس للكنيسة ذاتها ، أن تحاسب الانسان على حياته الروحية وادراكه العقلى .

فجاء بعد ذلك « امرسن » مع زملاء له يتفقون معه فى وجهة النظر ، وان لم يكن لهم ما له من قوة التعبير ، جاء بعد ذلك « امرسن » وزملاؤه المثاليون ، فانتزعوا من هذا المبدأ احدى نتائجه التى تلزم عنه ، وهى أن يكون للفرد — الى جانب استقلاله السياسى — استقلال فكرى ، فلا ينبغى لفرد أن يعتمد على فكر فرد آخر ، وواجب الانسان يقتضيه أن ينظر فى ثنايا ضميره ليدرك ادراكا حدسيا مباشرا ما عسى أن يوحى اليه به ذلك الضمير ، فيكون هو الحق ، ولا يبطل هذا الحق حق آخر يدركه الفرد نفسه فى لحظة أخرى ،

ولما كان الفرد الواحد ممثلا للروح الكلية الشاملة ، فهو فيما ينطق به عن صدق وسلامة حدس ، انما يفصح عن حقيقة تلك الروح الكلية من جهة ، وبالتالى فهو يعبر عما هو حق بالنسبة لسائر أفراد البشر من جهة أخرى ، وبهذا يصبح ما هو حق لفرد حقا لكل فرد آخر ؛ وان جاء ادراكه عن طريق فرد واحد .

فخرج من هذه الجماعة المثالية أحد أعضائها هو « هنرى ديفد ثورو » ودفع بهذه المبادىء الى نتائجها المنطقية ، فاذا كان الفرد قد اتفق مع زملائه على قيام الدولة فمن حقه باعتباره فردا أن ينسلخ وحده عن سائر الجماعة اذا أراد ، فلا يخضع للدولة اذا لم تصادف عنده هوى ، الفرد على هذه الأرض مملكة وحده ؛ هو بذاته وبمفرده سلطة لها سيادتها ، والمثل الأعلى هو ألا يقوم بين الأفراد حكومة ، فان قامت ، فلابد أن تنحصر واجباتها فى أقل حد ممكن من التدخل فى حياة الأفراد .

ولد « ثورو » عام ١٨١٧ فى كونكورد من ولاية ماساتشوستس فى انجلترا الجديدة — وهى الجزء الشمالى الشرقى من الولايات المتحدة — وهى نفسها موطن « امرسن » ، وقد تميز ثورو منذ باكورة حياته بحب للطبيعة عميق ، واشتغل بالتدريس بعد تخرجه فى جامعة هارفارد ، ثم اشتغل مساحا للأرض ، ولم تكن واجبات عمله هذا

تقتضى منه جهدا يستنفد طاقته ، فاستطاع أن يجد الفراغ للمحاضرة والتأليف ، ولما أن نضجت فى رأسه فكرة الفردية المستقلة المتطرفة ، أراد أن يعيش فى فكرته فلا يكتفى منها بمجرد القول والشرح ، فانتبذ فى غابات وولدن [١] مكانا قصيا وأقام لنفسه كوخا صغيرا ، حيث عاش وحيدا فى عزلة تامة مدى عامين كاملين ، يقرأ ويكتب قراءة وكتابة ملأتا كثيرا من وقته ، وقد دعاه العيش المنعزل فى حضن الطبيعة التى أحبها ، أن ينصرف بملاحظته الى الحيوان بكافة صنوفه ، حتى عرف عنه الشىء الكثير ، ووضع علمه ذاك فى كتابه « وولدن ، أو الحياة فى الغابات » [٢] ومات عام ١٨٦٢ وهو فى الخامسة والأربعين من عمره .

نقول ان « ثورو » قد دفع فكرة استقلال الفرد الى أقصاها ، فقرر أن يكون للفرد حق الخروج على الدولة فى رسالة له عنوانها « مقالة عن العصيان المدنى » [٣] أخرجها بعد أن شهد أمته تنحرف عن العدالة والحق كما رآهما ، وذلك فى حرب المكسيك وفى مسألة العبيد وفى معاملة الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين ، فرفض أن يدفع الضريبة

(١) Walden Woods

(٢) Walden, or, Life in The Woods وقد نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل .

(٣) Essay on Civil Disobedience

للحكومة ، ليعلن احتجاجه بصورة عملية وسجن من أجل ذلك ، فتقدم نفر من أصدقائه ودفعوا عنه الضريبة فأخلى سبيله ، لكن بقيت المشكلة النظرية قائمة ، وهى : هل للفرد حق الامتناع عن دفع ضرائبه للحكومة اذا وجدها قد انحرفت عن الحق والعدالة ؟ فى رأى « ثورو » أن للفرد هذا الحق لأنه منطو تحت سلطان الدولة باختياره ، وعلى شروط معينة ، وباختياره يستطيع الانسلاخ عنها والخروج عليها اذا أخلت بشروط التعاقد ، بل ان « ثورو » ليرى ذلك واجبا على كل فرد يعتز بفرديته ويعتد بروحه وعقله ، ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أن « امرسن » زاره وهو فى سجنه لامتناعه عن دفع الضريبة ، فسأله خلال القضبان قائلا : « هنرى ! ماذا تصنع هناك داخل القضبان ؟ » فأجابه « ثورو » بمثل سؤاله قائلا : « والدو ! ماذا تصنع أنت خارج القضبان ؟ » وهو يعنى بهذا أن « امرسن » بل وكل فرد آخر ممن يؤمنون بحقوق الانسان الطبيعية فى حريته الفردية ، لا يجوز له أن يستسلم لدولة تجنح عن طريق الصواب كما يمليه الضمير الحر ، وان أدى به عصيانه الى السجن ، وكتب يقول ان الحياة الطليقة فى ظل حكومة ظالمة هى السجن بعينه لمن ينشد فى الحياة عدلا .

كانت الولايات المتحدة عندئذ لا تأخذ بما تأخذ به البلاد الأوروبية من ضرورة قيام جيش عامل ، على أساس

آن مثل هذا الجيش لا تدعو اليه ضرورة وقيامه يقتضى نفقات كثيرة بغير موجب ، فقال « ثورو » : ان الاعتراض على قيام جيش فى البلاد يمكن توجيهه كذلك الى قيام حكومة فيها ، ثم استطرد يقول ان الحكومة الأمريكية افضل بعض الشىء من حكومات العالم الأخرى ، لأنها أقل من هذه الحكومات تقييدا للناس ، ومع ذلك فقد كان كل ما فعلته فى سبيل التقدم سلبيا لا ايجابيا ، اذ كانت حسنتها الوحيدة أنها لم تقم حائلا دون التقدم ، أما ما قامت به البلاد الأمريكية من أعمال انشائية فكله قد تم على أيدى أفراد الشعب ، ولا فضل للحكومة فيه ، وقد كان يمكن لهذا الشعب أن يزداد انشاء ويسرع تقدما لولا أن الحكومة كانت تتدخل فى سبيله حينا بعد حين .

يقول « ثورو » [1] : « اننى لأرحب بكل قلبى بهذا الشعار : « أفضل الحكومات حكومة تحكم فى أضيق دائرة ممكنة » ، ولكنى أدفع هذا القول الى نتيجته ، فأراه كأنما يصبح : أفضل الحكومات حكومة لا تحكم قط ، فستكون هذه حكومة الناس فى المستقبل ، حين يعدون أنفسهم لها .

« ولن تقوم دولة حرة مستنيرة بالمعنى الصحيح الا اذا اعترفت الدولة بأن الفرد قوة عليا مستقلة فى ذاتها تستمد منه كل ما لها من قوة وسلطان .

(١) Dreiser, Theodore, The Living Thoughts of Thoreau
ص ٨٣ وما بعدها .

« ان القول بأن الفرد خلق ليعيش فى مجتمع أكذوبة كبرى ، والعكس هو الأدنى الى الصواب ، فقد خلق المجتمع من أجل الفرد .

« ويريد الناس أن يحتفظوا بما يسمونه سلامة المجتمع بأعمال العنف كل يوم ، فانظر الى الشرطة وما تحمل من عصى وما تعده للناس من أغلال ! انظر الى السجون والمقاصل ! « اننا نعطى الحكم للأغلبية لا لأنها أحكم ، بل لأنها أقوى .. وانى لأرى كثيرا من الناس — ان لم أقل معظمهم — ضربا من الجثث المحنطة ، لقد غادرتهم الحياة ، ولكنى مع ذلك لا أرى أجسادهم تتآكل وتنقضى وتتحلل ، انهم لا يزالون يحتفظون بصورة الأحياء ، ولست أدرى أين الملح الذى ينجيهم من الفساد ويمنع عنهم الدود ؟ ! إن من الأجساد ما يسلم من الفساد بعد الموت والدفن ، فان نبشت قبورهم بعد أعوام ألفيت أجسادهم طرية كأنها ماتت بالأمس ، وهكذا بعض من أرى من الناس ، فلقد انطفأ فيهم سراج الحياة منذ بعيد ، ولكنهم لا يزالون يلبسون ما يشبه ملامح الأحياء .

« انى لأحسب أن هذا الشعب يطلب من الرجال أوساطهم انه يطلب من الآراء والأخلاق مألوفها ، انه لا يريد الأصالة والامتياز الواضح ، فلن تصادف فى نفسه الرضى الا اذا كنت شبيها بعامته » .

ويقول فى عدالة القانون ما يأتى [1] : « أليس من الجائز أن يصيب الفرد وتخطىء الحكومة ؟ هل يجب أن نفرض القوانين على الناس فرضا ، لا لشىء الا لأنها صيغت على هذا النحو ، ولأن نفرا من الناس قد أقر صوابها ، وهى ليست بالصواب ؟ هل ثمة ما يحتم على الفرد أن يكون أداة تنفذ عملا لا يوافق عليه ؟ أيريد هؤلاء المشرعون أن يقضوا على الصالحين من الرجال ؟ .. اسمعى أيتها الحكومات ! انك حين ألقيت القبض على أفذاذ الثائرين وجززت رءوسهم فلم تفعلى بذلك شيئا سوى أن ارتكبت جرما شنيعا ، وأما رأس الشر فلم يصبه الأذى .

« لا ينبغى أن تعلموا الناشئة احترام القانون بقدر ما يجب أن تعلموهم احترام الحق .. ان النتيجة الطبيعية لاحترام القانون بغير ما موجب هى أن ترى هذه الصفوف من الضباط والجنود تسير فى نظام عجيب فوق السهل والجبل الى حومات القتال رغم ارادتهم ، نعم ورغم ادراكهم الفطرى السليم ، ورغم ما تمليه عليهم الضمائر ، وذلك يجعل سيرهم هذا شاقا عسيرا أشد ما يكون العسر والشقاء ، انه سير تلهث منه القلوب » .

هكذا كان يكتب « ثورو » فتجىء كتابته قبسات من قلبه الحساس ، ومدار تفكيره — كما ترى — هو أن للفرد

(١) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

حق الثورة على الدولة ، وله أن يمارس هذا الحق حيثما وقع من الدولة ما ينفر منه ضميره ، ان حق الثورة لم يزل بزوال الثورة الاستقلالية التى قام بها الأمريكيون جماعة فى القرن الثامن عشر ، انه حق يظل قائما أبدا ، والعجيب أن «ثورو» فى ثورته الفردية هذه على الدولة التى قال عنها انها أججفت وضلت السبيل ، لم يكن صادرا عن أذى لحق بشخصه أو ظلم أحاق بصالح من صوالحه ، انما كانت ثورته لما لحق غيره من صنوف الاجحاف ، كانت ثورته فى سبيل غيره ، كالزنوج العبيد ، وكالهنود سكان البلاد الأصليين ، واذن فالأذى قد أحسه هو فى لذع ضميره ، كأنما هو لا يقصر واجب مقاومة الفرد لحكومته على الأمور التى تمس مصالح ذلك الفرد مسا مباشرا ، بل يوسع من مداه ، ويجعل المقاومة واجبة حيثما وقع من الحكومة طغيان ، بغض النظر عمن نال منه ذلك الطغيان ، وربما كانت المقاومة أوجب اذا ما نزل الطغيان ببلد أجنبى وقوم غرباء .

ليس حق الفرد فى الثورة على حكومته بقاصر على المقاومة الايجابية ، بل هو كذلك فى المقاومة السلبية ، فى رفض الولاء للحكومة ، فاذا حفزك ضميرك الى الخروج على طاعة حكومتك ، فلا يتحتم عليك أن تنتظر حتى يوافقك جيرانك على موقفك لتتكون منكم أغلبية تستطيع بقوتها أن تسقط الحكومة ، بل عليك بالبدء بنفسك ، ففيم انتظارك

من يؤيدونك من الناس اذا كان الله — متمثلا فى صوت ضميرك — الى جانبك يؤيدك ؟ هذا الى أنه اذا كان الصواب فى جانبك ، فصواب واحد هو الأغلبية بالقياس الى الكثرة المخطئة ، لا عجب أن تصبح رسالة « ثورو » فى العصيان المدنى من الكتب الرئيسية التى أعجب بها المهاتما غاندى حين أعلن مثل هذا العصيان فى الهند على حكومة المستعمر .

ان تطور التاريخ السياسى ليشهد فى جلاء على أن الفرد يزداد وزنا وأهمية ، فمن الملكية المطلقة المستبدة التى تغرق الأفراد فى طغيانها اغراقا ، تقدمت المدنية نحو ملكية مقيدة بارادة الأفراد ثم الى ديمقراطية جمهورية كالتى كانت قائمة فى الولايات المتحدة عندما كتب « ثورو » ، لكن هذه الخطوة الأخيرة — على تقدمها فى نظام الحكم والاعتراف بقيمة الفرد — لم تكن تشبع « ثورو » ولا تحقق له مثله الأعلى ، انما المثل الأعلى هو الذى يجعل كل فرد سيادة مستقلة ، فى مستطاعه أن ينشق عليها فلا يتدخل فى أمورها ولا هى تحرجه وتضيق عليه حر المسالك ، وكلما ازداد عدد هؤلاء الأفراد الذين يستقلون عن الحكومة ، ويحسنون التصرف نحو جيرانهم من تلقاء أنفسهم وبغير الزام من القانون يزداد الطريق تمهيدا نحو تحقيق المثل الأعلى الذى هو زوال الحكومة زوالا تاما .

وفيم حاجة الفرد الى دولة ترعاه ؟ ماذا عساها أن تعطيه مما ليس عنده ؟ أليس أعز ما يملك الانسان هو روحه ، ثم أليس الروح ملكا خاصا لا تضيف اليه الدولة شيئا ولا تستطيع أن تنتقص منه شيئا ؟ الروح المستقل بذاته لا يخشى على نفسه خطرا ، وبالتالى فهو لا يحس الحاجة الى دولة تقيه الخطر ، ان مثل هذه الحرية الروحية تنبع من النفس ولا تأتى من الخارج ، انها صناعة الفرد نفسه وليست هى بما يحتاج الى جماعة ليتم تكوينها ، ان كانت حاجتى الى الدولة هى أن تيسر لى العمل والتجارة ، فتلك حسنة لا أبيع حريتى واستقلالى فى سبيلها ، ان من يطيع الدولة الظالمة من أجل حسناتها المادية عبد رقيق يبيع روحه بمال وسلعه ، أمن الحكمة أن أنتظر المشرعين فى دور الحكومة فى العاصمة أن يسنوا لى شريعة حياتى وحريتى مع أنهم هم العبيد الذين اشتروا الضلال بالهدى اذا اشتروا المناصب والمراكز بالأنفس والأرواح ؟ كلا ، فأنا المشرع لنفسى ، ولا مشرع لها سواى .

وكسائر المتصوفة فى شتى العصور وفى مختلف الشعوب نبذ « ثورو » بصوفيته زخرف الدنيا وزينتها ، فلا المال يغنيه ولا الجاه يغريه ، وحسبه من الحياة روح فذ فريد يتصل بنفسه وبربه ، وللحريصين على الذهب والفضة أن يذلوا أعناقهم لواهب الذهب والفضة ، ثم كسائر المتصوفة

فى شتى العصور وفى مختلف الشعوب ، لم يكفه أن يتجرد من حاجات الدنيا العابرة ليلوذ بنفسه وينجو ، بل أراد بعد ذلك وفوق ذلك أن يتجرد من نفسه ذاتها ، لينظر اليها كما ينظر الى نفس غريبة عنه وعندئذ يبلغ الغاية من الامساك بزمامها ، « ألا ما أصلحها حكومة للفرد أن يحكم نفسه » وانما يستطيع ذلك الحكم الذاتى من استطاع أن ينسلخ عن ذاته ليرى أحداثها وخبراتها كأنما هو ينظر الى مسرح ، وهل من شك فى أننى مهما اندمجت فى مشاعرى فلا أزال أحس بين جنبى جزءا منى يقف موقف المتفرج الناقد ؟ اذن فهذا الجزء منى وليس منى ، انه جزء من « أنا » وكأنه جزء من « أنت » يشهد فى باطنى مسرحية حياتى [1] .

هكذا لبثت الفردية الاستقلالية تدفع « ثورو » حتى انعزل بها عن الناس انعزالا ، فظنه الناس حالما شذ برأيه عن مألوف المجتمع ، ولو استثنينا مقالته عن العصيان المدنى ، لكانت بقية كتابته أبعد ما تكون الكتابة عن التنسيق والتبويب ، انه لينثر أفكاره نثرا حسب ورودها على خاطره ، ومع ذلك فقد أدلى بالرأى الناضج فيما يشغل المفكرين فى يومه — والى يومنا — من أمهات المسائل ، وجاءت مذكراته تلك التى كتبها متناثرة على مدى اثنين وعشرين عاما ، من الغزارة بحيث امتلأ بها أربعة عشر مجلدا ، فيها ما يشتهى

(١) Thoreau, Walden, or Life in the Woods : ص ٢١١ — ٢١٢ .

القارىء من رأى وحكمة : فيها رأيه فى الطبيعة وما يدبرها من عقل حكيم ، ورأيه فى الزمن وتغير الأشياء ، وفى المعرفة مصدرها وحدودها ، وفى الجمال والفن ، وفى الحق والباطل وفى الخيال والواقع ، وفى مشكلة الأخلاق وحرية الارادة وجبرها ، وفى العواطف الانسانية وما تؤدى اليه من خير وشر ، وفى المجتمع والدين ، وفى القانون والعدالة ، وفى الحياة والموت والآخرة ..

ولكن أنى لهذا الشاعر الفيلسوف تلك الثروة الفكرية الغزيرة ؟ انه لم يستمدها من الكتب ، ولم يستعبد نفسه لشخصيات الأعلام من السالفين ، نعم لقد طالع الأدب اليونانى والرومانى وقرأ الشعراء الانجليز ، فضلا عما عرفه من معاصره وصديقه وأستاذه « امرسن » ولكن أين يقع هذا كله مما أنتج ؟ ان مصدره الأول الأعظم هو سفر الكون العظيم ، هو هذا الريف الجميل الذى كان له فتنة وسحرا ، فقد أراد أن يتعقب سر الوجود فى خدره ومكمنه ، ان هذه الكائنات من حوله لأنغام لأنشودة خافية عن الآذان ، سافرة لذوى الشعور الحى الملتهب ، فليقصد الى هذا النشيد فى مصدره ومبعثه ، لقد خلبه جمال الحياة وسرها ، حزنها وسرورها ، جهلها وحكمتها ، خيرها وشرها ، حياتها وموتها ، فهو عليل هدّه المرض ، ولكنه مع ذلك يأبى أن يؤمن بما ينتظره من فناء ، وكيف يفنى وهو الذى علمه التأمل فى

خلق السموات والأرض أنه جزء من تلك القوة الروحية العليا التى خلقت العالم وأبدعته ؟

وههنا نضع اصبعنا على محور فلسفته ولباب فكره ، كما أنه محور الفلسفة المثالية كلها متمثلة فى معاصريه من زملائه ، فهذه الظواهر التى تدركها الحواس رموز تصيح بأن وراءها قوة فعالة مدبرة ، والوسيلة الى ادراكها هى الحدس أو العيان الروحى المباشر ، فلئن كان العلم بمشاهداته وتجـاربه يحصر نفسه فى الظـواهر واطرادها ، فالفلسفة والشعر ينفذان خلال الظواهر بقوة الحدس فيريان الحقيقة العليا الواحدة الأزلية الأبدية ، ماذا يريد العلم حين يعالج ظواهر الوجود ؟ يريد شيئا واحدا ، ما يزال — ولن يزال الى آخر الأبد — يجد فى تحصيله ، وذاك أن يصف اطراد الظواهر ليصوغ قوانين اطرادها ، ان العلم ليسأل : كيف يحدث هذا الذى أرى ؟ ثم ينطلق باحثا عن جواب ما سأل ، أما ان أردت أن تعرف « لماذا » يقع فى الطبيعة ما يقع فسل غير العلم والعلماء ، سل الفيلسوف أو الشاعر « لماذا » يجبك الشاعر أو الفيلسوف ، قل للعلم : ما الانسان ، ولم كان ؟ يزعم لك أن الانسان آلة من مادة تسيرها مؤثرات البيئة فتسير ، أما الفلسفة المثالية ، وان شئت فقل الشعور الفياض والحدس الصافى — كما تراهما فى « امرسن » وفى « ثورو » — فترى أن وراء هذه الظواهر التى يقف عندها

العلم ، قوة عليا توجه ما فى الكون من مادة وطاقة الى ما ينبغى لها أن تكون .

ان « ثورو » — مثل « امرسن » — يرى أن الحياة بكل ضروبها تسيرها نواميس معلومة مرسومة تشمل بسلطانها كل شىء ، ولكنه يأبى أن يصف تلك النواميس بالآلية العمياء ، لأنه يؤمن أنها شاعرة بما تفعل ، ويشرف على فعلها قوة عليا تسع كل موجود فى الوجود ، فليست تلك القوة خالقة لما فى الكون وكفى ، بل انها لا تنفك مدبرة له ومنظمة .

أنظر الى « ثورو » وقد ارتقى قمة الجبل يرقب السماء وأفلاكها والأرض وأشجارها ، ويلحظ الأطيار سابحة فى الفضاء وصنوف الحيوان ساعية رائحة غادية ، فيحتدم فى صدره الشعور القوى بوجود ذلك الروح الأعلى الذى يعرف كل شىء لأنه خلق كل شىء بل هو هو كل شىء ! ولقد شهد على مسرح الطبيعة — فيما شهد — المعارك الحامية تنشب بين طوائف النمل ، ورأى أمهات الحيوان تقذف بصغارها للكلاب العادية وراءها لتنجو بنفسها ، ولكنه رغم هذا الجانب المعتم القاتم من الحياة يصيح قائلا : « ومع ذلك فانى أؤمن بحكمتك يا رباه ! » (١) .

(١) مقتطفات من مؤلفات « ثورو » فى كتاب : Dreiser, Theodore; The Living Thoughts of Thoreau ص ٣٠ وما بعدها .

لقد أخذ «ثورو» يجوس خلال الطبيعة ويجوب أنحاءها ان الانسان تربطه بسائر الطبيعة أوثق الصلات ، فلئن كان هذا الانسان جزءا من بناء اجتماعى فما ذلك من حقيقة حياته سوى عرض تافه ، وأما لباب حقيقته فهو أنه جزء من الطبيعة بأوسع معانيها، أليس الانسان وليدالارض ؟ ألا يأكل ماتهيئه الأرض من لحم وخضر ؟ ألا يسكن شطآن الانهار ويسبح بسفائنه فوق متون البحار ؟ ألا يستضىء بالشمس ويتنفس الهواء ويحدق بنظره فى السماء ونجومها ؟ انه اذا عضو فى هذا الكون الفسيح ،انه جزء من الطبيعة لا يتجزأ .

واذا كان الانسان أخا لهذا النبات والحيوان وسائر مافى الوجود من كائنات ، فلماذا لا يسعد فى حياته كما تسعد ؟ ان « ثورو » متفائل يحب أن يرى الأشياء كما هى ، فهى على هذه الصورة القائمة جميلة كفيلة باسعاد الناس لو شاء الناس لأنفسهم السعادة ، فلا تنفق حياتك انتظارا للجزاء ، لا تنظرن الى الحياة جهادا مضنيا وعبئا ثقيلا ، بل استمتع بها ففيها سحر وفتنة وجمال ، ان الحيوان والنبات سعيد حين يقوم بما يقيم له الحياة ، فهو سعيد حين يغتذى ، وسعيد حين ينمو ، وسعيد حين يحس ، فماذا يمنع الانسان أن يسعد بوظائف الحياة فى نفسه ؟ ماذا يمنعه أن يسعد بغرائزه حين يشبعها ، وبحواسه حين يتملى بها روائع الوجود ؟ ولكن « ثورو » يجيل البصر فى الناس من حوله

فتشيع فى نفسه الحسرة والأسى ، ان هؤلاء الناس لتضل بهم السبيل حين ينشدون السعادة لأنفسهم ، انهم يبحثون عنها فى الثروة العريضة والطعام الغزير ، انهم يطلبونها فى أسباب الراحة والخمول ، فهم — اذن — يبحثون عن السعادة فيما يعطل الحياة ويعوقها ، فوالله لقد فشل المسعى وخاب الرجاء ، فيأيها الانسان احتذ النبات والحيوان ان أردت عيشا رغيدا ، أشبع غريزة الجوع بالقوت ، ولكن لا تسرف ، وتدثر بالثياب ولكن لا تكثر ، واتخذ لنفسك المأوى ولكن لا تغال ولا تبالغ .

يقول « ثورو » فى الطبيعة العاقلة ما يلى :

« ما أسرع ما تصلح الطبيعة ما يحدثه الانسان فيها من عطب ، ان جذ الانسان شجرة وخلفها جذعا داميا سارعت الطبيعة الى نجدتها بكل ما لها من فنون الكيمياء ، لتستر ذلك الجذع الأبتر فى رفق بثوب جديد ، وما تزال بها تضيف اليها اللفائف الخضراء حتى تعود آية تفتن عشاق الطبيعة من جديد .

« ان هذه الأرض التى أطؤها بأقدامى ليست كتلة من جماد موات ، انها جسد له روح ، انها كائن حى .. ان للطبيعة أمعاءها ، انها أم الانسانية ، أبذر فيها البذور تترعرع نباتا .. ان الطبيعة تبذل جهدها لتطعم الانسان .. انها تطعم العقل والجسم جميعا فتغذو الخيال كما تغذى الجسد .. انها

ليست جميلة فى عين الشاعر وحده ، وليس الرائع من آياتها غروب الشمس وقوس قزح وكفى ، بل لأن تطعم وتلبس الثياب وتأوى الى مأواك وتصطلى دفء المدفأة ، كل ذلك آيات روائع وبواعث على الالهام ..

« منك أيتها الأرض نشأت مفاصلى وعظامى ، وأنا لك أيتها الشمس أخ شقيق .. والى هذا التراب سيعود جسدى جذلان فرحا ، سيعود الى حيث بدأ .. اننى منك » (١) .

هكذا نرى « ثورو » عميقا فى روحانيته وتدينه ، ومع ذلك فلم يبلغ أحد ما بلغه « ثورو » من مهاجمة الكنيسة ونظمها وتقاليدها ، لأن الروح — فى اعتقاده — تختنق فى جو النظام والتدريب ، انه مسيحى بتقديره الخالص لما فى حياة المسيح من جمال وكمال ، عقيدته لا تحتاج الى لاهوت وكهنوت ، فحسب المؤمن أن يتبصر فى السماء وألا يقيم الحواجز الحائلة بين بصره وبين السماء ، وما المذاهب الدينية المختلفة الا هذه الحوائل التى تعوق وصول الانسان الى ربه ، المسيحى الصحيح النفس لا يريد كنيسة يرتادها ، بل ينهض بفرديته كما فعل المسيح ، وما حاجة السليم المعافى الى كنيسة هى بمثابة المستشفى لأرواح المرضى ؟ انها — كمستشفيات الأجساد — مليئة بالتدجيل والخداع ، انه ينظر الى مرتادى الكنائس نظرته الى من اعتل واسترخى

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥ — ٣٦ .

ولم يعد يؤدى عملا مفيدا ، حتى ليعد الكنائس مهربا للفارين من وجه الحياة النشيطة العاملة ، ألا ان الفضائل كما يفهمها الناس لأبعد الأشياء عن الفضيلة بمعناها الدقيق ، خذ الاحسان مثلا ؛ فنحن — فى رأيه — حين نحسن انما نهدم أنفسنا ونهدم من نحسن اليهم على السواء ، لأننا نهدر انسانية من نعطيه احسانا حين نحول بينه وبين أن يكون انسانا كاملا يعتمد على نفسه ، ونهدر انسانيتنا كذلك لأننا نغذى فى أنفسنا غريزة السيطرة حين نعطى الفقير ، وهل تمتد يدك بالاحسان الا مدفوعا برغبة خفية فى أن تعلو غيرك وتسيطر عليه ؟

لابد لكل فرد — فى رأى ثورو — أن يعمل كل يوم عملا كبيرا أو صغيرا ، لأن الترف والكسل معناهما الموت ، وهذا العمل اليومى المحتوم على كل فرد عمل عضلى يساهم به فى وسائل التعمير ، وليس العمل الجسدى عنده بمقصور فى نفعه على الجسد وحده ، ولكنه وسيلة لتهذيب الفكر الذى يجب أن يبلغ به صاحبه منزلة يستطيع معها أن يندمج فى الطبيعة .. وتلك هى العبادة .

« كم من الناس يظن بنفسه أنه يقوم بأعظم الخدمات ، لأنه ينفق المال فى وجوه الاحسان ، المال الذى كسبه سواه ! هؤلاء الذين لا ينتجون شيئا تراهم مترفين وهم أشد الناس الحاحا فى الطلب وأعلاهم صياحا بالشكوى حين

لا يظفرون بمـا يشتهون .. انهم يعلقون — كالمنهوم — بالأحياء فيمتصون عصاراتهم امتصاصا ، ان ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الأموات يعلقون بكل انسان عامل ، ثم يحسبون أنهم قد أدوا للمجتمع أجل المآثر ، لأنهم اعتمدوا فى عيشهم على ذلك المسكين ، وبعـدئذ تراهم يملأون الكنائس .. فليس لديهم ما يعملونه سوى أن يرتكبوا الخطيئة ثم يكفروا عنها ، فكيف تنتظر لهؤلاء المصاصين للدماء أن يكونوا من السعداء ؟ » (١) .

سبيل النجاة من هذه القيم الفاسدة كلها هو تقويم الفرد ليعيش حرا مستقلا ، وانه لناقم أشد النقمة على تربية الناس لأبنائهم فيما يسمونه بالمعاهد أو المدارس ، وكلها معاول تقوض الفردية وتهدمها ، بدل أن تقيمها وتبنيها ، التربية فى هذه المعاهد والمدارس — كما يقول « ثورو » — مهزلة وأضحوكة ، وحسبك منها أنها لا تعلم أحدا كيف يكسب قوته ! انها تحشو الرءوس بالآراء النظرية التى ابتكرها المجتمع ، والتى لا تسمن ولا تغنى من جـوع ، فلا حياة للانسان الا باستخدام حواسه وجسده ، ولكن الناس ممعنون فى الخطأ ، فتراهم ينشدون الاصلاح ، ولكن أى اصـلاح يريدون ؟ انهم يسعون الى الزيادة من ترف الانسان وراحته ، ولكنه يوجه السؤال الى هؤلاء المصلحين :

(١) المرجع السابق ، ص ٨٩ — ٩٠ .

ما غناء الاصلاح فى أسباب الحياة المـادية ان ظلت نفس الانسان على حالها ؟ ماذا يفيدنا تغيير وجه الأرض ان لم نغير ما بأنفسنا حتى تعتدل عواطفنا وتستقيم ؟ انه ليستحيل على اصلاح مادى أن تقوم له قائمة الا ان سبقه اصلاح فردى باطنى ، ولكنا نعود فنقول : انك ان قومت باطن الانسان ، فما أتفه ظواهر الحياة المادية بعد ذلك !

obeikandl.com